محاضرة عن أغراض الزّجل

أغراض الزّجل: تناول الزجل الأغراض التي تناولتها القصيدة التقليديّة، وقد نظموا في الغزل والمدح والخمر والزّهد وغير ذلك من فنون الشّعر العربي القديم:

١- الغزل: جاء الغزل مصاحبًا للهو والمجون ويدلّ هذا على أن بعض هذه الأزجال نظمت في مجالس الأنس، والطرب ومن الأزجال التي انفردت بالغزل العفيف زجل لمدغليس يقول:

قد رحلت أنا وقلبي إيش يكون منّي ومنو

ولا يشفقوا عليّ ذا الملاح ولا يحنو

قد قسمت أنا وقلبي الهوى بلا مناعس

فخرجت أنا للأفكار وخرج هو للوساوس

فهو كل حد في راحة ونحن في حرب داحس

نضربو أخماس في أسداس من حساب لم نظنو([٢٥])

٢- وصف الطبيعة: إنّ الطّبيعة الخلّابة قد فتنت شعراء ووشاحي الأندلس، ما جعلهم يتغنون بجمالها كما في قول أبو علي بن أبي نصر الدباع:

لا شراب إلّا في بستان والرّبيع قد فاح بنوار

يبكي الغمام ويضحك أقحوان مع بهار

والمياه مثل الثّعابين في ذلك السّوقي دارو

والنّسيم عذري الأنفاس قد نحل جسم وقد رق

وعشية مليح فتنة عنه المسك ينشق

والطيور تحكي المثاني وتسقها أحسن سياقا

في ثمار يلهون لزمان العشق طاقا

فغصن لآخر يقبل وقضيت لآخر يعنق

فنجد توظيف التشبيهات والاستعارات العذبة في وصف الطبيعة مفصّلًا ودقيقًا.

٣- الخمريات: ومن الفنون التي تناولها أهل الأندلس في أزجالهم وصف الخمر والتّغنّي بها، وقد كان الأندلسيون يحتسون الخمر في مجالس اللهو والأنس، وقد كان ابن قزمان يتردد على هذه المجالس وله زجل يقرر فيها أن الحياة إنّما هي لهو وشرب عشق ،وما عدا ذلك من الدّنيا لا قيمة له في نظره، ومما قال:

دنيا هي كم تراها فاجتهد واربح زمانك

كلّ يوم وكل ليلة لا تخلى مهر جانك

واسع عليه من قبل أن يجيء الموت في شأنك

لس ذي عندك مصيبة والدنيا حيَا ؟

ساع دون شريب عندي لا شكل ولا ملاحة

واسِ يوم بلا رقاعة وأش يوم بلا وقاحة

لس عند اللذلذة ولايد الرّاح واحة

حتّى تدخل شقة الكأس بالشّراب بين شفتيا([٢٦])

٤- المدح: طرق الزجل موضوع المدح، وقد أكثر منه الزجالون ومزجوه بأكثر من موضوع، وهو بذلك يأتي على طريقة الموشّح والقصيدة التقليدية في هذا الغرض، ونجد الزجل في قصيدة لابن قزمان الذي بنى قصيدة زجليّة مدحيّة من دون ربطها بغرض آخر عندما مدح القاضي ابن الحاج يقول:

وصل المظلوم لحق وانتصف غني ومسكين

يحضر الإنكار والإقرار ويقع الفصل فالحين

اجتمع فيه الثلاثة: الورع والعلم والدين

فيزول الحقّ إذا زال ويدوم الحقّ إذا دام

وترى طالب ومطلوب لس ترى زوار جلاس

إلّا أن كانت ضرورة كلمة كلمتين فلا بأس

مِرآت يا قاضي للجماعة جزاك الله خير عن الناس

إن مذ كنت أت حاكم عرفت شروط الأحكام

أيّ نهار نراك في دارك وأتِ قد جلست للناس

والخصام يعطي ويمنع الزحام وحرب الأنفاس

والمواريث والجنايات والنظر فأموال الأيتام([٢٧])

وقد جاءت معظم أجزال المديح ذكر خصال الممدوح، وصفانه الحميدة وتمجيده، ولم يختلف المديح في هذا الغرض عن القصيدة التقليديّة والموشّح "غير أن الزجالة قد خالفوا الوشاحين في بعض أزجال المديح، فبينما كان الوشاح يختم موشحته بخرجة فصيحة احترامًا للممدوح، كان زجال القرن السّادس الهجري يصدر زجله بمقدمة زجلية ماجنة أحيانًا"([٢٨]). ما يؤكّد أن الشخصية الممدوحة، كانت تتذوق مثل هذه المقدمات في ذلك العصر.

٥- الهجاء: إنّ الهجاء هو الغرض المناقض للمديح، وقد تطرق الزجالون إلى موضوع الهجاء بقسوة، فشعراء القصيدة التقليدية قد بالغوا في حينما تطرقوا لهذا الغرض، وقد كان الزجالون أشدّ فحشًا منهم، خصوصًا أن ألفاظ الفحش والتهكم أكثر وفرة في العامية منها إلى الفصحى([٢٩])، ونجد نوعان من الهجاء: أهاجي تتسم بروح الخفّة والسّخرية اللاذعة والفكاهة الخفيفة، وهجاء خالص يجنح إلى الفحش والقذف وإيثار التّصريح على التّلميح. ومن الأزجال التي بنيت على الهجاء وحد، زجل الحسن بن أبي الدّباغ، إمام الهجو الذي قاله في طبيب:

إنّ ربت من عداك يشتكي من تلطيخ

وتريد أن يقبر احمل للمريخ

قد خلف ملك الموت بجميع إيمان

ألا يبرح ساعة من جوارد كان

ويريح روح ويعظم شان

لقد اتسم هذا الزّجل، بخفّة الرّوح والنّكتة البارعة، ومن الهجاء الخالص الذي يجنح إلى الفحش زجل ورد لأبي علي الدباغ، أقدم فيه على هجاء أم شخص، يدعى الجرنيس النيار لما أصابته مصيبة الموت، وكان الدّباغ ماهرًا في الهجاء، فنعتها بأحط النّعوت كالدّعارة والفسوق، من دون أن يحفظ حرمة الميت يقول:

عزوا ابليس ونوح يا كفَار

ماتت أمّ الجرنيس النيار

كل شاطر إن كان في ذا الجيها

حلف الموت ألا يخليها

وأي رزيا جرت على الشطار

بيها كان الربض يفوح... ك

وتزين قبح المعاصي إليك

متحل ابليس حتى تقع فالعار

خلت أولاد بحل فراغ البوم([٣٠]).

٦- التصوّف: من المواضيع التي تناولها فن الزجل، هي التّصوّف فقد كان أبو الحسن الششتري، أوّل من أدخل التّصوّف في الأزجال، ومن أزجال الششتري:

لله لله هاموا الرّجال	في حبّ الحبيب
الله الله معي حاضر	في قلبي قريب
إدّلل يا قلبي	وافرح حبيبك
واتنعّم بذكر	مولاك وقصّ الأثر
واتهنّى وعش	مدلل ما بين البشر
دعوني دعوني نذكر	حبيبي بذكرو نطيب
الله الله معي حاضر	في قلبي قريب[٣١]

وقد عبّر الششتري عن أدقّ المعاني الصوفية ونزل إلى العامّة، فتداولوه في ما بينهم، وأنشدوه في مجالسهم، وقد غلبت الأزجال الصوفيّة في ديوان الششتري على القصائد الصّفيّة، فتكاد تصل إلى المائة وهو عدد كبير، إذا قورن بشعره الصّوفي الذي لا يتجاوز إحدى وأربعين قصيدة، ما يدلّ على غلبة روح الزّجل عليه أكثر من الشّعر([٣٢]).

١- الزجالون: ابن قزمان أبو بكر محمد بن عبد الملك بن قزمان القرطبي المتوفى سنة (٥٥٣ه – ١١٦٠م) إمام الزجالين على الإطلاق([٣٣])، وقد اشتهر بالأزجال في الأندلس ونظم كذلك الموشّحات، عاب على متقدميه أزجالهم ووصفها بالبرودة، ويعدّ ديوانه المطبوع من أنفس الآثار الأدبية في الأندلس، ولم يصل إلينا كاملًا ([٣٤]).

٢- مدغليس: عبد الله بن الحاج الزجال المعروف باسم مدغليس (ت٥٥٤-١١٦٠ه) عاش في عصر الموحدين، ولمدغليس قصائد زجلية على أوزان العرب أوردها الحلي في العاطل وله أزجال في كتاب (المغرب)([٣٥]).

– الزجل بعد الأندلس: إنّ الزجل الذي اشتهر في الأندلس وشاع في خارجها خرج منها تمامًا بعد سقوطها، وانتشر في البلاد العربية المشرقية وتفرّق في البلاد العربية بين شعر نبطي محافظ على خصائصه الزجليّة القديمة (في منطقة الخليج خصوصًا، وهو خليط من الزجل الأندلسي، والشّعر العاميّ العربي القديم الشفهي غير المدوّن المشابه للشعر الفصيح) وشعر وسيط بين النبطي والزّجل اللبناني (في العراق ومصر) وزجل لبناني غير سابقيه إلى حدّ وانبثق في بداياته من الأناشيد السّريانية مع وزنَيْ القرادي والمعنّى، ثمّ تطوّر في أوزان عربية لاحقً، فالشّعر العاميّ المشرقي كان له تأثير أكبر من زجل الأندلس في شعر العامّة في تلك المنطقة، فلا نرى أن الزجل الأندلسي، هو ما أثّر في تكوين الزجل اللبناني تأثيرًا فاعلًا، "فالقرادي والمعنّى يظلان العمود الفقري للزجل اللبناني عند شعراء الزّجل"([٣٦])، ويمكننا القول إنّ الزجل اللبناني منشؤه هو في لبنان أساسًا لا في أي مكان آخر، وقد تكون الأمثال الشعبية العامل الأوّل المساعد لتداول الزجل .